

رأس المال الثقافي
مقاربة سوسيولوجية

خالد كاظم أبو دوح ■

تمهيد:


يُعدُّ «بيير بورديو» (1930م ـ 2002م) من أهم علماء الاجتماع خلال السنوات الأخيرة، وذلــك من خلال النظر إلى الإنتاج السوسيولوجي الغني والمتنوع الذي خلّفه لنا، وقد كرّس قسماً كبيراً من هــذا الإنتاج لعلــم الاجتماع الثقافي، وبشــكلٍ أكثــر دقة لتحليل الممارسات الرمزية، وقد تناول هذه الفكرة على المستويين النظري والميداني، بالاعتماد على جهود امتدت لسنوات طويلة.

ويعــد مفهــوم رأس المال مــن المفاهيــم المحوريــة في فكر «بورديو»، ولم يتعامــل مع هذا المفهوم من خــلال معناه التقليدي الاقتصادي فحسب ـ ســواء كان هذا الرأسمال وراثيــاً أم مكتسباً ـ ولكنه نظر إلى هذا المفهوم من خلال أنه مــورد يمنح الفاعل قوة اجتماعية داخــل الفضاء الاجتماعــي، وقد يتجسد فــي أشكال غير مادية؛ مثال رأس المال الاجتماعي، ورأس المال الثقافي.

سنحاول مــن خلال هــذه الورقة تقديــم رؤية تحليليــة نقدية لمفهوم رأس المال الثقافي، بالاعتماد على أفكار «بورديو» وغيره من

■ أستاذ علم الاجتماع السياسي، كلية الآداب ـ جامعة سوهاج.

علمـاء الاجتماع، خاصة مع ذيـوع استخدام هذا المفهوم فـي السوسيولوجيا المعاصرة، على المستويين النظري والإمبيريقي.

ويسبق ذلك عرض للتطور الذي طرأ على مفهوم رأس المال كأداة تحليلية بالغة الأهمية في النظرية الاجتماعيـة الكلاسيكية والمعاصرة، وهذا العرض يعد مدخلاً هامـاً لفهم الـرؤى المختلفة التـي اهتمت بمفهـوم رأس المال الثقافي.

ويشـير مفهوم رأس المـال الثقافي إلى المـوارد التـي يحوزها الفاعل الاجتماعي من خلال علاقتـه بالثقافة، سواء كانت هذه المـوارد موروثة من خلال كل ما يحوزه الفرد من عملية التنشئة الاجتماعية، مثال اللغة، وعناصر البنية العقلية (أنماط التفكير، الاستعـدادات، نظم المعاني)، أو مكتسبة من خلال المؤهـلات التعليمية، وتقاس قيمـة كل مؤهل هنـا بالاعتماد على عدد السنوات التي يقضيها الفرد في التعليم.

أولاً: مفهوم رأس المال... من الطرح الكلاسيكي إلى الطرح المعاصر:

يُشير «جورج ريتزر» George Ritzer في موسوعة **النظرية الاجتماعية** إلى أن تبني العلـوم الاقتصادية والاجتماعية لمصطلـح «رأس المال» قد جاء في البداية من لغة التُجار، وكانت تعني المواشي والدواب المعدودة بالرأس؛ لأنه في ذلك الوقت المُبكر كانت الدواب والمواشي هي السلعة التي يتم بواسطتها تقدير وتقييـم كل السلـع الأخـرى، أو ما يطلق عليـه العلمـاء رأس المال الاقتصادي Economic Capital.[1]

وبعد ذلك تمَّ استخدام كلمة رأس المال لتُشير إلى المال أو الاستثمار في المـال، ويكـاد يكون هنـاك اتفاق عـام بيـن العلماء علـى مختلف تخصصاتهم علـى أن رأس المال الاقتصادي هو أكثـر أشكال رأس المال كفاءة، وهو يُشير إلى الدخل المادي، أو هو الشـكل الذي يقبل التحويل بشكلٍ مباشرٍ وسريع إلى مال، ليس هذا فحسب بل من المُمكن تحويله إلى

1 - George Ritzer, Encyclopedia of Social Theory, Vol.1, Sage Publication, London, 2005, p.75.

أي شكلٍ آخر من أشكال رأس المال بسهولة ويُسْر، كما يُمكن نقله من جيل إلى آخر[2].

وجاءت بعد ذلك جماعة الفيزيوقراط ومن بعدهم «آدم سميث» (1723 ـ 1790م) Adam Smith ليحرروا مصطلح رأس المال من اقتصاره على رأس المال النقدي، ليُشير إلى المال والأدوات وأغراض أخرى، واستخدم «آدم سميث» مفهوم رأس المال ليشير إلى جميع متطلبات الإنتاج التي تُحقق الدخل، وجزءٌ من هذه المتطلبات ـ والذي يُعدُّ جزءاً من رأس المال ـ يتمثل في القدر المناسب من المهارات التي يمتلكها الأفراد، الذين يكون لديهم القدرة على توظيفها بكفاءة، وهو ما يتم التعبير عنه بمفهوم رأس المال البشري Human Capital[3].

يُشير «جورج ريتزر» في موسوعة النظرية الاجتماعية إلى أن تبني العلوم الاقتصادية والاجتماعية لمصطلح «رأس المال» قد جاء في البداية من لغة التُجار، وكانت تعني المواشي والدواب المعدودة بالرأس.

ولقد تعامل عُلماء الاقتصاد البورجوازيين الكلاسيكيين التابعين لـ«ريكاردو» (1772 ـ 1823م) مع رأس المال بوصفه عملاً متراكماً وناتجاً عن جهود الإنتاج السابقة. ويأتي بعد ذلك إسهام «كارل ماركس» (1818 ـ 1883م) الذي يتعامل مع رأس المال بوصفه القيمة الفائضة الناتجة عن استغلال العمال المأجورين، فرأس المال ليس في حد ذاتِهِ وسيلة للإنتاج، بل هو علاقة اجتماعية بين الطبقات الرئيسة في المجتمع البورجوازي، وعلاقة استغلال بين مالكي وسائل الإنتاج والعمال المأجورين[4].

2 ـ انظر في ذلك:

- Alexander Lellatchitch, and Others, The Field of Career Towards a New Theoretical Perspective, p.5. http: // www. Wien. Ac- at/inst/ivm/local.htm.

- Helmut K. Anheir, and Others, Forms of Capital and Social Structure in Cultural Field: Examining Bourdieu's Social Topography, American Journal of Sociology, Vol. 100, No. 4, Jan 1995, p.862.

3 ـ George Ritzer, Encyclopedia of Social Theory, op. cit., p.75.

4 ـ إلياس فرح، تطور الفكر الماركسي، دار الطليعة، بيروت، 1981م، ص 74.

ويُمكن من خلال مُراجعة الفكر الماركسي حول مفهوم رأس المال التأكيد على جوهر رؤية «ماركس» لرأس المال في العناصر التالية[5]:

أ - يرتبط رأس المال بشكلٍ وثيقٍ بإنتاج وتبادل السلع، والسلع في نظريات «ماركس» تكون بشكلٍ أساسي بضائع مادية لها بطاقات للسعر، والعمل والقوة العاملة وقيمة العمل هي جزءٌ من بطاقة السعر.

ب - يتضمّن رأس المال مجموعة عمليات متنوعة، فهو ليس بالبساطة التي نرى بها السلعة، حيث إنه يمثل عملية استثمار من جانب الرأسمالي، فالإنتاج يتطلب تجميع وتنظيم العمل، والأرض، والأجور، والأجهزة والمعدات وغير ذلك.

ت - نتيجة لهذه العمليات يكون أي رأس مال ناتج عبارةً عن قيمة مضافة (فائض القيمة أو الربح)، ووجود رأس المال يعني أن قيمة السلعة في السوق أعلى من قيمة إنتاجها أو تكلفة إنتاجها.

ث - يُعد رأس المال مفهوماً اجتماعياً؛ حيث يستلزم عمليات ونشاطات اجتماعية، فعملية الإنتاج تستلزم العديد من الأنشطة الاجتماعية، فعلى سبيل المثال يصف «ماركس» قيمة الاستخدام على أنها تعتمد على «العمل الضروري اجتماعياً» («Socially Necessary Labor»)، وعملية التبادل أيضاً هي في جوهرها عملية اجتماعية.

ج - يحصل الرأسمالي على رأس المال، أو العائد من عملية تداول السلع، عبر دورة إنتاج وتبادل السلعة وتراكم رأس المال. ويُعدُّ رأس المال عملية ونتيجة نهائية، ويتركز تحديداً في أيدي هؤلاء الذين يتحكّمون في وسائل الإنتاج.

وتعكس الرؤى السابقة فكرة أساسية جوهرها أن رأس المال هو استثمار الموارد المتاحة بهدف إنتاج الربح، وأن الماركسية أكدت على أن كلّاً من الاستثمار والربح منوطان وراسخان للرأسماليين، ولا يؤدي العمل المتضمن في عمليات الإنتاج إلى تراكم رأس المال لدى العمال، ولهذا فإن التباين الطبقي شيء أساسي في المجتمعات الرأسمالية؛ حيث إن الرأسمالي يتحكّم في وسائل الإنتاج، ويجمع ما يتم إنتاجه من فائض القيمة الناتج عن هذا العمل.

5 - Nan Lin, Social Capital: A Theory of Social Structure and Action, Cambridge University Press, Cambridge, 2001, p.7.

ولقد جاء التطور الذي شهده مفهوم رأس المال بعد ذلك ليحذف أو يُعدل جوهرياً التفسير الطبقي كتوجه نظري ضروري، وهذا التطور يتجسد على نحوٍ واضح في رؤية «بورديو» Bourdieu لمفهوم رأس المال، والتي تتلخص في أن رأس المال يُشير إلى تراكم العمل في شكله المادي أو شكله المُنتج المُجسد، والذي عندما يحوزه فرد أو جماعة يُمكّنهم من امتلاك قوة اجتماعية Social Energy بصورتها المادية أو الاجتماعية (الحياتية)، ويُمثل رأس المال بهذا المعنى قوةً ذات بنى ذاتية وموضوعية. وبنية توزيع الأشكال الرئيسة والفرعية لرأس المال في لحظة معينة تعكس وتجسّد بنية العالم الاجتماعي؛ حيث إن رأس المال وأشكاله المختلفة ووظائفه داخل العالم الاجتماعي تكون محكومة بمجموعة من الكوابح Constraints[6] التي يشملها العالم الاجتماعي، تلك الكوابح التي تحكم وظائف رأس المال بطريقة مستمرة، وتُحدد فرص النجاح للممارسات المختلفة المرتبطة به[7].

إنّ رأس المال هو استثمار الموارد المتاحة بهدف إنتاج الربح، وأن الماركسية أكدت على أن كلّاً من الاستثمار والربح منوطان وراسخان للرأسماليين، ولا يؤدي العمل المتضمن في عمليات الإنتاج إلى تراكم رأس المال لدى العمال.

ويُحدد هذا التعريف ثلاث سمات أساسية مميزة لمفهوم رأس المال، هي[8]:

6 ـ يُشير مفهوم الكابح الاجتماعي عند «جيدنز» إلى أن الجماعات والمجتمعات التي تنتمي إليها تمارس تأثيراً فاعلاً، يسهم في تشكيل سلوكنا. ولقد رأى «دوركهايم» أن الكابح الاجتماعي يمثل إحدى الخصائص المميزة للظواهر الاجتماعية، ولقد قسم «جيدنز» هذه الكوابح إلى ثلاثة أنماط هي: الكوابح المادية، والعقاب الشعبي، والكوابح البنائية. انظر في ذلك:

ـ أنتوني جيدنز، **مقدمة نقدية في علم الاجتماع**، ترجمة أحمد زايد وآخرين، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، 2002م، ص 252.

ـ أحمد زايد، **آفاق جديدة في نظرية علم الاجتماع، نظرية تشكيل البنية**، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد رقم (33)، العددان (1، 2)، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، مايو، 1996م، ص 80 ـ 82.

7 ـ Pierre Bourdieu, The Forms of Capital, In J.G. Richardson (ed), Handbook of Theory and Research for The Sociology of Education, Greenwood press, New York, 1980, p.241-242.

8 ـ Esther Ho Sui – Chu, Parental Involvement and Student Performance: The Contribution of Economic, Cultural, and Social Capital, National Library of Canada, Canada, 1998, pp.56-57.

1 ـ إن رأس المال لا يكون بالضرورة في صورة مادية أو مالية فحسب.

2 ـ هُناك أشكالٌ متعددة لرأس المال، منها المادي الذي يُطلق عليه رأس المال الاقتصادي، وهناك غير المادي، والذي يتمثل في رأس المال الاجتماعي، ورأس المال الثقافي، وغير ذلك من الأشكال العديدة لرأس المال.

3 ـ يمكن تحويل رأس المال من شكلٍ إلى آخر، طبقاً لمبدأ تحويل الطاقة الاجتماعية وتبدلها.

وعمل «بورديو» بهذه الرؤية على تعديل التوجّه النظري المرتبط برأس المال ونقله من توجه قائم على الطبقة (حيث يتم استثمار رأس المال وتراكمه بواسطة الطبقة البورجوازية فقط) إلى رؤية مبنية على الفاعل الفرد (حيث إن الفاعلين سواءٌ كانوا أفراداً أو مجتمعات يستثمرون ويراكمون مثل هذه الموارد)[9]. وهذا التحول الذي حدث في التعامل مع مفهوم رأس المال ينسحب على نحوٍ واضح ليشمل الأشكال المختلفة لرأس المال، والتي تزايد الحديث عنها في العقود الخمسة الأخيرة ومنها: رأس المال البشري، ورأس المال الاجتماعي، ورأس المال الثقافي.

ثانياً: مفهوم رأس المال الثقافي:

على الرغم من أن «بورديو» هو من صاغ مفهوم رأس المال الثقافي Cultural Capital؛ فإن فكرة الثقافة ـ التي تُمثل مصدراً من مصادر المكانة والقوة ـ كانت موجودة ومتأصلة في النظرية الاجتماعية، خاصةً الفكر المرتبط بالطبقات في أعمال كل من «ماكس فيبر» و«إميل دوركهايم». فلقد كتب «فيبر» بشكلٍ موسّع حول ما أطلق عليه جماعات المكانة Status Groups، ويقصد بهم الأفراد الذين تجمعهم ثقافة المكانة الواحدة أو المشتركة؛ أي الذين يمتلكون الهوية والقيم والأذواق الجمالية نفسها، وكذا أشكال الزي، والخطاب... إلخ، ويُعدُّ ذلك بالنسبة لهم مصدراً للشرف والتميز والتكريم. وأكد «فيبر» هُنا على أن أي

9 ـ Nan Lin, Inequality In Social Capital, Contemporary Sociology, Vol. 29, No. 6, Nov. 2000, p.785-786.

معيار للتباين والتميز - مهما كان هيناً - يُمكن أن يُفيد كأساسٍ في تشكيل جماعة المكانة، وهذا التأكيد من قبل «فيبر» يظهر صداه لدى «بورديو» في استخدامه لمفهوم الاستبداد أو التعسف الثقافي Cultural Arbitrary لوصف رأس المال الثقافي، كذلك وفر «فيبر» وصفاً وبياناً كلاسيكياً عن الدراسات الصينية التي ألقت الضوء على وصف «بورديو» للمتخصّص المحترف الذي يستثمر رأس المال الثقافي بقوة كأساس للمطالبة والادعاء بمكانة النُّخْبة. والشيء المحوري لدى «فيبر» هو أن جماعات المكانة تستخدم كوسيلة للحفاظ على الحدود والفواصل القوية ضد الدخلاء، وذلك بهدف احتكار الموارد النادرة والفرص المتاحة بالسوق[10].

هُناك أشكالٌ متعددة لرأس المال، منها المادي الذي يُطلق عليه رأس المال الاقتصادي، وهناك غير المادي، والذي يتمثل في رأس المال الاجتماعي، ورأس المال الثقافي، وغير ذلك من الأشكال العديدة لرأس المال.

ومن الفكر الدوركهايمي اشتق «بورديو» فكرة أن الثقافة ذات المركز الاجتماعي والمكانة الرفيعة لها سمة القدسية؛ أي إنها تنأى بنفسها عن العالم الواقعي اليومي، كما أنها تُشكل مجموعة الرموز الثقافية التي تُمثل قوة الجماعة بأسلوب مادي وجذاب ومقنع.

وجوهر مفهوم رأس المال الثقافي لدى «بورديو» - من خلال استخداماته لهذا المفهوم في أعماله عن فرنسا المعاصرة - هو معرفة الفرد بالثقافة الجمالية المتميزة ذات المركز الاجتماعي الرفيع وإدراكه لعناصرها، مثال ذلك الفنون الرفيعة، والثقافة الأدبية، والقدرة اللُّغوية. ويذهب «بورديو» إلى أن رأس المال الثقافي يتمثّل في ثلاثة أشكال هي[11]:

---

10 - George Ritzer, Encyclopedia of Social Theory, op. cit., p. 168.

ولمزيد من التفاصيل حول إشكالية الثقافة، وأبرز المقاربات الأنثروبولوجية والأيديولوجية والسوسيولوجية لمفهوم الثقافة، انظر:

- عبد الغني عماد، **سوسيولوجيا الثقافة.. المفاهيم والإشكاليات.. من الحداثة إلى العولمة**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006م.

11 - Pierre Bourdieu, The Forms of Capital, op. cit., pp. 244-248.

الأول: الحالة المادية المتحـدة أو المجسّمة: وهي الحالـة التي تتعلّق بترتيب وتنظيم العقـل والجسد، وهي تتطلب من الفرد بـذل الوقت والجهد بهدف تكوين ومراكمة رأس المال الثقافي، ويبذل الفرد هنا الوقت والمجهود؛ وذلك من أجل الارتقاء الذهني والاستيعاب، ويبيّن هذا أن عملية اكتساب رأس المال الثقافي تُعد عملاً شخصياً أو تنمية ذاتية، ومجهوداً يبذله الشخص أو تكاليف شخصية يدفعهـا الفرد بنفسه لنفسه، وهذا الشـكل من رأس المال الثقافي يُمثل ثروة خارجية، تتحول مع الوقت والجهد إلى جزءٍ يتَّحد في الفرد ويُكون هويته، ولا يُمكن نقل هذا الشكل سواءٌ بالمنح، أو الوراثة، أو الشراء، أو المبادلة.

الثاني: وهو الحالة الموضوعية، مثال البضائع الثقافية (الصور، الكتب، والقواميس... إلـخ)، ويعني هـذا أن رأس المال الثقافي يتمثـل في الأشياء المادية، ولذلك فهو قابل للنقل من حيث ماديته، وهنـا يُؤكد «بورديو» على وجـود علاقةٍ ما بيـن هذا الشـكل مـن رأس المـال الثقافـي ورأس المال الاقتصادي؛ حيث إن ملكية الفرد لمثل هذه الأشياء المادية تتطلّب منه أيضاً ملكية رصيـد من رأس المال الاقتصـادي، كما أن استخـدام الفرد مثل هذه الأشياء المادية يتطلّب منه امتلاك رصيد من رأس المال الثقافي، أو بالأحرى رأس مال ثقافي في شكله الأول، وهي الحالة المادية المتجسدة.

الثالث: وهي الحالة التنظيمية، وهي حالة التكوين العضوي، والتي تُقدم خصائص وسمات رأس المال الثقافي، كما في المؤهلات العلمية، وهذه الأخيرة هي إحدى الطرق لإثبات حقيقة امتلاك الفرد لرأس المال الثقافي.

وهذه الحالة هي التـي تفرق بين رأس المال الخـاص بالتعليم الذاتي، ورأس المال الثقافي الخاص بالجماعة الحاكمة، والذي قد يتحصل على فوائد قليلة في سوق التبادل الاجتماعي، ورأس المـال الثقافي المقرر أكاديمياً من خلال المؤهلات العلميـة المُعترف بها رسمياً، وهذه الأخيـرة هي التي تمنح لحائزيها قيمة مضمونة وشرعية، ويُشكل هذا جوهر الاختلاف ما بين المنافسة المعروفة رسمياً وشرعياً، وبين رأس المال الثقافي البسيط والذي يحتاج إلى إثبات ذاته باستمرار.

وهذا تقييمٌ أوليٌّ لكل من «لامونــت» Lamont و«لارو» Lareau لرؤية «بورديو»، فقد أشارا إلى عدم وضوح عبارات «بورديو» ومفاهيمه عن رأس المال الثقافــي؛ حيث إنها غالباً ما تكون غامضــة، بل وفي بعض الأحيان متضاربة، وتفسيراته لا ترتبط بإشارات خاصة أو مجردة، وهذا بدوره أدى إلى فشــل الباحثين في إخضاع نظرية «بورديو» للاختبــار الإمبيريقي[12]. وانتهى كل مــن «لامونــت» و«لارو» إلــى أن رأس المــال الثقافي فكرة مؤسساتية تعني وجود قدر مشــترك من الإشارات والمفاهيم الثقافية بين الطبقــات العليا (مثال: المواقــف، الميول، المعرفــة الرسمية، السلوك، الأهداف، الاعتمــادات) المستخدمة في عملية الاستبعاد الثقافــي والاجتماعي، وهذا التعريف يؤكد على أن رأس المال الثقافي مورد له قيمة في الســوق الذي ينشــأ فيه الصــراع من أجل التميّز، كمــا أنه قابــل للادخــار والاستثمار، ويمكن استخدامه للحصول على موارد أخرى[13].

يذهب «ريتزر» إلى أن رأس المال الثقافي يتمثل في قُدرة الفرد على معرفة الأشكال الثقافية المنظمة والمؤسسة، والتي تقع في قمة البناء الهيراركي للنظام الثقافي داخل المجتمع وكيفية استخدامها.

ويذهب «ريتزر» إلــى أن رأس المال الثقافي يتمثل في قُدرة الفرد على معرفة الأشكال الثقافية المنظمة والمؤسســة، والتي تقع فــي قمة البناء الهيراركي للنظام الثقافي داخل المجتمع وكيفية استخدامها[14].

وتُشــير «إليزابيث سيلڤا» Elizabeth Silva إلى أن مفهوم رأس المال الثقافي يشير إلى الاستثمار في الثقافة بوصفها رأس المال، يُمكن أن تعود

12 - Paul W. Kingston, The Unfulfilled Promise of Cultural Capital Theory, Sociology of Education, Vol. 74, 2001, p.89.

13 - انظر في ذلك:
- Michele Lamont, Annette Lareou, Cultural Capital: Allusions, Gaps and Glissandos in Recent Theoretical Developments, Sociological Theory, Vol. 6, No.2, Auto. 1988, p. 150-156.
- Paul W. Kingston, The Unfulfilled Promise of Cultural Capital Theory, op. cit., p.89.

14 - George Ritzer, Encyclopedia of Social Theory, op. cit., p. 167.

على الفرد بالربح والعوائد، كما يُمكن نقل هذا النوع من رأس المال عبر عمليات التنشئة الاجتماعية التي تتم داخل الأُسرة والنظام التعليمي[15].

ولقد ظهر تأثير «بورديو» بشكلٍ واضح في العديد من المحاولات التي عالجت مفهوم رأس المال الثقافي، فهُناك أحد الباحثين يذهب إلى أن رأس المال الثقافي هو شكل من أشكال رأس المال، يوجد في العديد من الصور أهمها[16]:

أ ـ الاعتياد على تصرفات وسلوكيات معينة، أو من خلال طريقة مميزة للسلوك، يتم اكتسابها من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية.

ب ـ تراكم القيم الثقافية الموضوعية.

ت ـ التعليم الرسمي والمؤهلات العلمية والتدريبية.

وهُناك من يذهب إلى أن رأس المال الثقافي يشير إلى التعليم والميول والاستعدادات الدائمة لاستيعاب الثقافة والتثقيف، وهذا يحدث من خلال عملية يُبذل من أجلها الوقت، وهذا الأخير يدل على استدماج الفرد لعناصر هذا الشكل من أشكال رأس المال، ويُمكن على نحو سهل تحويل رأس المال الثقافي إلى الأشكال الأخرى من رأس المال[17].

وذهب كل من «موهر» Mohr و«دي ماجيو» Dimaggio إلى أن رأس المال الثقافي مفهوم يُشير إلى الأذواق الرفيعة، والأدوات والأساليب الثقافية رفيعة المستوى، والتي تعترف بصلاحيتها الهيئات والمؤسسات الثقافية. ولقد علقت «سوزان» Susan على هذا التعريف بأنه غامض بدرجةٍ كافية؛ لأنه يسمح بعددٍ واسع من التفسيرات[18].

15 ـ Elizabeth B. Silva, Homologies of Social Space and Elective Affinities: Researching Cultural Capital, Sociology, Vol. 40, No. 6, 2006, p. 1173.

16 ـ Helmut K. Anheier, Jurgen Gerhards, Frank P. Romo, Forms of Capital and Social Structure in Cultural Fields: Examining Bordeaux's Social Topography, op. cit., p. 862.

17 ـ Alexander Lellatchitch, and Others, The Filed of Career...Towards A New Theoretical Perspective, op. cit., p. 5.

18 ـ Susan A. Dumais, Cultural Capital, Gender, and School Success: The Role of Habitus, Sociology of Education, Vol. 75, No. 1, Jan. 2002, p. 48.

أما «بورتس» Portes فيُعرِّف رأس المال الثقافي بأنه أوراق الاعتماد الرسمي للمؤهلات التعليمية التي يمتلكها الفرد، والتكوين المعقد وغير الملموس للقيم والمعرفة الخاصة بالأشكال الثقافية المرتبطة بالسلوك[19].

ولقد أشارت «سوزان» إلى أن تعريفات مفهوم رأس المال الثقافي تسير في عدد من الاتجاهات المتباينة[20]:

الاتجاه الأول: ويُركز على المتغيرات المرتبطة بمدى مشاركة الفرد في الأنشطة الثقافية، مثال: زيارة المتاحف، أو الذهاب لحفلات الموسيقى الكلاسيكية.

يُعرِّف «بورتس» رأس المال الثقافي بأنه أوراق الاعتماد الرسمي للمؤهلات التعليمية التي يمتلكها الفرد، والتكوين المعقد وغير الملموس للقيم والمعرفة الخاصة بالأشكال الثقافية المرتبطة بالسلوك.

الاتجاه الثاني: يُركز على أن رأس المال الثقافي يظهر في شكلٍ تحكُمي، بمعنى أن هناك جماعةً ما سعت إلى وجوده، وذلك بهدف منع أو إقصاء جماعة أخرى من الحصول على موارد القوة.

الاتجاه الثالث: ركز أصحابه على مقاييس رأس المال الثقافي، التي تعكس المكانة الاجتماعية والاقتصادية بشكلٍ واضح، مثال: كون الآباء يوفّرون لأبنائهم مكاناً خاصاً للاستذكار أوْ لا، وبعض السمات اللامعرفية؛ مثال ذلك الأسلوب الذي يتبعه الفرد في التواصل والتعامل مع الآخرين.

ومن خلال الدراسات الميدانية يظهر مفهوم رأس المال الثقافي بوصفه الموارد الثقافية، أو البضائع الثقافية التي لها قيمة داخل السوق الاجتماعي، ومن خلالها يمكن للفرد أن يحقق التميز أو يشغل مكانة اجتماعية عالية. وتُعدُّ هذه المضامين متفقاً عليها، وفي المقابل تنبه الباحث ـ من خلال عدد من الدراسات ـ إلى الخلط ما بين رأس المال البشري المتمثل في القدرات والمهارات الذاتية التي يكتسبها الفرد، ورأس المال الثقافي. وعلى الرغم من أن هذه الدراسات لم

19 ـ Alejandro Portes, The Two Meanings of Social Capital, op. cit., p.2.

20 ـ Susan A Dumais, Cultural Capital, Gender, and School Success: The Role of Habitus, op. cit., pp.48-49.

تذكر شيئاً عن هذا الخلط أو حتى تبرره؛ فإن الباحث يعتقد بأن مثل هذا الخلط مقبول؛ حيث إن المهارات والقدرات التي يحوزها الفرد ويمتلكها يُمكن عدها رأس مال ثقافي، وذلك في حالة ما قام الفرد بتطوير هذه المهارات من خلال التدريب والتعليم، والاهتمام بالتزود بالمصادر الثقافية التي تجعل من هذه المهارات والقدرات رأس مال حقيقياً، سواءٌ كانت هذه المصادر الثقافية جاءت بشكل رسمي ومؤسسي، أم جاءت بشكلٍ غير رسمي[21].

ولعل هذه الفكرة التي يطرحها الباحث على عكس حرص «ريتزر» Ritzer على التمييز بين رأس المال البشري ورأس المال الثقافي؛ حيث إن رأس المال البشري يتضمّن المهارات والمعلومات التي تُسهم في الحراك الاجتماعي للفرد، وهو يعمل داخل الأسواق الخاصة بـه «سوق العمل»، أمـا رأس المال الثقافـي فيعمل عبر التفاعل الاجتماعي، ونادراً ما يكون مُنتجاً اقتصادياً[22]. ويعلّق الباحث هنا على رؤية «ريتزر» بأنها غير واضحة، فإذا كان رأس المال البشري يتضمن المعلومات التي يمتلكها الفرد، فإن رأس المال البشري بهذا لا يبتعد عن التفاعل الاجتماعي؛ لأن الفرد قد يحصل على جزء من رصيد المعلومـات لديه من خلال عمليات التفاعل الاجتماعي، إضافة إلى أن رأس المال الثقافي لا يبتعـد عن سوق العمل، وهناك إمكانية لتحويل رأس المال الثقافي إلى رأس مال اقتصادي.

وقد لاحظ الباحث أن هناك اتفاقاً على مؤشرات قياس رأس المال الثقافي على مستوى الدراسات الإمبيريقية، ومن أهم المؤشرات التي تمَّ الاعتماد عليها بشكلٍ متكرر: عدد الكتب في المنزل، وما يرتبط بها من عادات القراءة، ونوع التعليم، وعدد سنوات الدراسة، والمؤهـلات العلمية، وأسلوب الحياة، والقيم المرتبطة بالتفضيلات الثقافية الراقية، والأنشـطة الثقافية المتنوعة. ويُشير

21 ـ انظر في ذلك:

- Susan A. Dumais, Cultural Capital, Gender, and School Success: The Role of Habits, Op Cit, p.48-49.

- Jon Lauglo, Social Capital Trumping Class and Cultural Capital ? Engagement With School Among Immigrant Youth, In Stephen Baron (ed), Social Capital: Critical Perspectives, Oxford University Press, Oxford, 2000, ص. 154.

22 ـ George Ritzer, Encyclopedia of Social Theory, op cit, p.168.

الباحث هنا إلى أن الاتفاق الذي تجسد ما بين الدراسات السابقة حول قياس رأس المال الثقافي جاء من خلال أن الفكـر الذي طرحه «بورديو» حول هذا المفهوم جاء واضحـاً ودقيقاً، ومارس تأثيراته علـى مختلف الباحثين الذين حاولوا الاستفادة من هـذا المفهوم في فهم واقع مجتمعاتهـم ودراسته. هذا بالإضافة إلى أن «بورديو» ناقش ـ بشكل واضح ـ مجموعة العناصر التي يمكن من خلالها قياس رأس المال الثقافي، وهي[23]:

أ ـ مستوى التعليم والألقاب العلمية المعتمدة.

ب ـ عدد السنوات التي قضاها الشخص في الدراسة.

ت ـ تردد الشـخص على الأنشـطة الثقافية والمشاركة فيها.

تنوعت الأدوات التي تم الاعتماد عليها في دراسة رأس المال الثقافي، وتُعد المقابلات من أهم هذه الأدوات، يأتي بعدها الاستبيان، ولعل المقابلة تُعد من أنسب الأدوات لدراسة رأس المال الثقافي وما يرتبط به من ممارسات.

وقد تنوعت الأدوات التي تـم الاعتماد عليها في دراسة رأس المال الثقافـي، وتُعد المقابلات من أهم هذه الأدوات، يأتي بعدها الاستبيان، ولعل المقابلـة تُعد مـن أنسـب الأدوات لدراسة رأس المال الثقافي وما يرتبط به من ممارسات؛ حيث إن مثل هـذه الأداة توفـر بيانات عميقـة، وتُتيح للمبحـوث الفرصـة لكـي يتحـدّث بحريـة عن المتغيرات المرتبطة برأس المال الثقافي.

ثالثاً: تبدلات رأس المال الثقافي:

تُعد قابلية أشكـال رأس المال إلى التحويـل أو التدوير والتبادل هي أساس الإستراتيجية التي تهدف إلى التأكيد على إعادة إنتاج رصيد رأس

23 ـ انظر في ذلك:

- Michele Lamont, Annette Lareau, Cultural Capital: Allusions, Gaps and Glissandos in Recent Theoretical Developments, op cit, p. 155.
- Carlo Barons, Cultural Capital, Ambition and the Explanation of Inequalities in Learning Outcomes, Sociology, Vol. 40, No.6, 2006, p. 1040-1042.

المال، أو زيــادة منافع الفرد وعوائــد رصيده من رأس المــال الذي في حيازته[24]. ولقد أولى العديد من العلماء هذه العملية كثيراً من الاهتمام، فمن خلال رأس المال الاجتماعــي يستطيع الفاعلــون أن يحوزوا الموارد الاقتصاديــة (مثال القــروض والإعانات)، ويستطيعون تنميــة رأس مالهم الثقافي عبــر صلاتهم وعلاقاتهم مــع الخبراء والأفــراد ذوي الثقافة أو أصحاب الأرصدة العالية من رأس المال الثقافي. ومن ناحية ثانية يتطلّب تراكــم رأس المال الاجتماعــي لدى الأفــراد استثماراً لكل مــن الموارد الاقتصادية والثقافية[25].

وهُناك من يُشــير إلى أن الفاعلين في أي مجال يسعــون وراء مصالحهم ومنافعهم، سواء أكان ذلك بوعي منهم أو دون وعــي، ودائماً يوجد صراع من أجل الحفاظ على هذا التوزيع المتفاوت واستمراريته، أو إعادة إنتاجه بشــكلٍ آخر، ويتضمّن هذا الصراع محاولات مستمرة تهدف إلى تحويل رؤوس الأموال من شكل إلى آخر[26].

يدعم التُراث النظري المرتبط برأس المال الثقافي فكرة أن رأس المال الثقافي واحد من أشكال رأس المال، وعبر رأسي المال الاقتصادي والاجتماعي ومعهما يعمل رأس المــال الثقافي كمورد للقوة، وأسلــوب لاستمرارية سيطرة جماعة، أو وصولها إلى مكانة متميزة.

ولقد اعتقد «بورديو» أن رأس المال الثقافي أداة مرنة وقوية لفهم العلاقة بين الثقافة والقوة والتفاوت وانعدام التكافؤ في المجتمعات المعاصرة[27]. وتبدأ عملية تحقيق الفرد لتراكم عالٍ من رأس المال الثقافي منذ الولادة، وتمتد فترة تراكم رأس المال الثقافي بامتداد عملية التنشئة الاجتماعية[28].

24 - Pierre Bourdieu, The Forms of Capital, Op. Cit., p.252.

25 - Alejandro Portes, Social Capital: Its Origins and Application in Modern Sociology, op. cit, p.4.

26 - Qyvind Ihlan, The Power of Social Capital: Adapting Bourdieu to the Study of Public Relations, op. cit., p.493.

27 - George Ritzer, Encyclopedia of Social Theory, op. cit., p.170.

28 - Esther He Sui – Chu, Parental Involvement and Student Performance, op. cit., p.63.

وطبقاً «لبورديو» فإن مقدار رأس المال الثقافي الذي يُمكن أن يكتسبه الفرد ويراكمه يعتمد على عدد من العوامل؛ منها الفترة الزمنيــة، والبناء الاجتماعي، والطبقة الاجتماعية، وقدرات الفاعلين الأفراد، وهذا يعني أن هناك تبايناً ما بين الأفراد فيما يكونونــه من أرصدة رأس المــال طالما أن هنــاك اختلافاً في هذه العوامل. وعلى عكس رأس المال الاقتصادي الذي يمكن نقله وتحويله مباشرة إلى الأجيال المتعاقبة فــإن نقل رأس المال الثقافي وتحويلــه يتحدد جزئياً من خلال القدرات المناسبة التي يمتلكها الفــرد والمخصصة لذلك[29]. وهذا لا يعني ـ بأي حال من الأحوال ـ عدم إمكانية نقل وتحويل رأس المال الثقافي؛ لأن مفهوم رأس المــال الثقافــي ـ منــذ أن صاغــه «بورديــو»، ثم استخدمه العديد من العلماء، كان يهدف إلى شرح وتفسير قدرة بعض أعضاء النُخْبة على نقل مكاناتهم المتميزة إلــى أطفالهم، وهذه العمليــة أطلق عليها «إعادة الإنتاج الاجتماعي والثقافي»، وهذه العملية لا يتم بمقتضاها نقل المكانات الاجتماعية فحسب، بل إنها تعمل على إنتاج صور جديدة من أشكال التفاوت الاجتماعي، والتمايز الثقافــي فيما يرتبط بالأذواق واستهلاك السلع الثقافية[30].

يدعم التُراث النظري المرتبط برأس المال الثقافي فكرة أن رأس المال الثقافي واحد من أشكال رأس المال، وعبر رأسي المال الاقتصادي والاجتماعي ومعهما يعمل رأس المال الثقافي كمورد للقوة.

ويُمكــن التدليل على ذلك بنتائــج إحدى الدراسات التــي اهتمت برصد العلاقة ما بين رأس المال الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والقدرة التحصيلية للأبناء فــي مدارسهم، حيث أكدت هذه الدراسة علــى أن الواقع أكد إمكانية تحويل رأس المــال الثقافي الذي يحــوزه الوالدان إلى إثــراء تقدير الذات والتحصيل الدراسي لدى الأبناء[31].

ويُمكن أيضاً تحويل رأس المال الثقافي إلى رأس المال الاجتماعي أو رأس المال الاقتصادي؛ فالطبيب النفسي الذي يحصل على مؤهلات علمية عالية في

29 ـ Ibid, p.63.

30 ـ George Ritzer, Encyclopedia of Social Theory, op. cit., p.167.

31 ـ Ether Ho Sui – Chu, Parental Involvement and Student Performance, op. cit, pp.146-147.

تخصصه، ويمتلك مهارات مهنية عالية، يمكن له أن يحقق ذيوعاً وانتشاراً في مهنته أكثر مـن أي طبيب آخر، وهذا يمكّنه من حيـازة رصيد كبير من رأس المال الرمزي ورأس المال الاقتصادي[32].

وفي دراسـة ثالثة، أشارت النتائـج الإمبيريقية إلـى أن تدوير رأس المال الثقافي إلى رأس مال رمزي يكون بدرجات متفاوتة بين الفاعلين، وهذا التفاوت يرتبط في أساسه بتقسيم العمل داخل المجال الثقافي إلى النقد والإنتاج الأدبي، وهنا يتم التمييز بين نُخْبة الكُتاب والجماعـات المحيطة من الكُتاب، حيث إن نُخْبة الكُتاب لا تكتفـي بالإنتاج الفكـري فحسب؛ بل يمتـد إسهامهم نحو نقد التراث المنتج «المنتج الفكري»؛ حيث إن أفراد هذه النُخْبة لا يمتلكون القدرة على تقييم فكرهم فحسب؛ بل أيضاً تقيم الفكر المُنتج من حولهم، وهذه الأعمال هي التي من الممكن أن تمنح مثـل هؤلاء الأفراد سلطة وشرعية ثقافية على من يُحيط بهم من كُتاب؛ أي يتراكم لديهم رصيد كبير من رأس المال الرمزي، وقد يمتد ذلك أيضاً إلى مراكمة رصيد من رأس المال الاقتصادي[33].

ليس هذا فحسب بل من الممكن لمن يحوز رصيداً مناسباً من رأس المال الثقافي أن يصبح من نُخْبة مجال السلطة العام، ففي بولندا، كشـفت إحدى الدراسات عـن أن جماعـات النُخْبة التي ترتكـز على رأس المـال الثقافي استطاعت أن تحقق نجاحات واسعة فـي المسرح السياسي البولندي، ودعمها في ذلك تلك التحولات السياسية والاقتصادية التي شهدها المجتمع البولندي في الآونة الأخيرة، ومجمـل هذه التحـولات دعمت من المكانـة الاجتماعية للأفراد الذين يمتلكون رصيداً كبيراً من رأس المال الثقافي، هذا الرصيد هو الذي سمح لهم بإحكام سيطرتهم على الحياة السياسية[34].

32 - Natalia Dinello, Forms of Capital: The Case of Russian Bankers, International Sociology, Vol. 13, No. 3, Sep. 1998, p.292-294.

33 - Helmut K. Anheier, and Others, Forms of Capital and Social Structure in Cultural Fields: Examining Bourdieu's Social Topography, op. cit., p.890.

34 - Tomasz Zarycki, Cultural Capital and The Political Role of the Intelligentsia in Polanda, Journal of Communist Studies and Transition Politics, Vol. 19, No. 4, Dec. 2003, p.97-105.